[38] (99) ولعل بعض مصنفات الشيخ أيضا قد مسته النار في تلك الاحداث. على أن محلة الكرخ ومكتبة الشابور التي تحدثنا عنها سابقا قد أحرقتا في عام 450 أو 451 ه. (100) وجدير بالذكر ان الشيخ الطوسي كان مشاهدا لجميع هذه الاخطار والاضطرابات في تمام أيام إقامته في بغداد، وحتى أنه رأى بأم عينيه كيف أن الشيخ المفيد أبعد عن بغداد عام 409 (101)، أي بعد قدوم الشيخ بسنة واحدة ومع ان مشاهدة هذا الوضع المضطرب لابد وأن يؤثر في نفس الشيخ، ويترقب أن نجد آثار هذا الوضع الروحي في كتاباته وآثاره إلا أن العجيب هنا أن شيئا منها لا يحكي عن اي اضطراب روحي أو تبلبل فكري ولا يشير إلى وقوع شئ من تلك الاحداث. بل على العكس من ذلك، فان جميع انشاءاته وآثاره واملاءاته حاكية عن روح هادئة ونفس مطمئنة، وارادة جازمة محكمة كما أن مناظراته وأبحاثه في كتبه وردوده على الفرق الاخرى خالية تماما من أي نوع من انواع التعصب المذموم، عارية عن الحساسية المترقبة في تلك الاحوال عادة مع انه بحث في كتبه الفقهية والكلامية والاصولية مع كل فريق، وخاض كل معضلة وولج كل فج عميق. نعم نجد الشيخ في ابتداء كتاب الغيبة الذي ألفه عام 447 ه (102) اي في بحبوحة الصراع والازمات المتلاحقة يقول: "... وأنا مجيب إلى ما سأله وممتثل ما رسمه مع ضيق الوقت، وشعث الفكر، وعوائق الزمان، وصوارف الحدثان... " ومع الاعتراف بأن هذه العبارة تحكى عن نهاية الضغط وغلبة اليأس عليه وعن انتهاء أمد صبره على الاحداث غير الملائمة، فنحن نرى الشيخ في نفس الوقت وفي وسط تلك الظروف، يقدم بهذه الكلمات كتابا يعد في موضوعه من أحسن الكتب الى هذا الزمان، ومن أوثق الآثار في بابه. وبعد هجرة الشيخ من بغداد وإحاطة الفتن بها كان من الطبيعي أن تنحل حوزة الشيعة وتتفكك مجتمعاتهم في بغداد، وأن يغادرها سائر العلماء أيضا أو يعيشوا فيها منعزلين مستورين عن الناس، فقد قلنا إن النجاشي قد هاجر إلى مطيرآباد في سامراء حيث توفي فيها عام 450 ه.

_____ (99) - البداية والنهاية ج 12 ص 97. (100) - الكامل لابن الاثير ج 8 ص 88. (101) - الكامل ج 7 ص 300. (102) - يقول الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة ص 85: "... في هذا الوقت الذي هو سنة سبع وأربعين وأربعماءة... ".

_____